الوجودية في القصة القصيرة

بقلم : أحمد عصام الدين

ان الحقيقة التي لا يقبل الجدل هي أن القصة القصيرة في هذا العصر كما كانت فيما مضى وكما ستكون في مستقبل الأيام ، أداة تعبير عن حقيقة أو نزعة أو مذهب مما يختلف على الانسانية في عصرها الممدود ـ حقائق تكشف عن البصيرة ونزعات تعتور النفس ومذاهب تتبلور في الفكر ، وكلما قطن صاحب الحقيقة أو النزعة أو المذهب ومن يستمع على نوله الى مدى ما للقصة من أثر في النفس ، فانشأ يصطنعها وسيلة الى غرضه .

وواحد من المذاهب الانسانية التي تسربت الى عقيدة أهل الأرض على مدى واسع ، مذهب الوجودية ، ذلك المذهب الذي يقول بالذاتية وحدها وأنها دون الذات والعقل هي المعول الوحيد في عالم نعدو فيه الأشياء وقد خلت من كل معنى وبدا العقل سخفا ، وترتب على هذا أن يتعين على الانسان وقد جرد مما كان له من معتقدات وتقاليد وعادات أن يتخذ هو قرارات ، وأن يحدد حقائقه التي دعاها كيركيجارد « الحقائق الدامية » ، تلك التي تكشف عن رحلة العذاب التي يقوم بها الروح خلال ليل الخاطىء البهيم .

والوجودية مما اختلف من وجودها تنعكس صورتها في القصة القصيرة ، فكل قصة قصيرة وضعها قصاص وجودي ترمز لجانب من المذهب وتعالج القصصية على نحو يطيب للنفس أن تجلد فترة من الزمن تصغي الى الحديث عنه فهو يأتيها عن طريق القصة ، ذلك الشكل الأدبي الوحيد الذي يروق لها وتطمئن الى صحبته .

ونعرض هنا نماذج من القصة الوجودية تعرض جوانب من المذهب الوجودي اذا فرح القارىء منها ، يكون قد حصل الكثير ، لا أقول من الفائدة العلمية الخطيرة ولا المتعة الأدبية الرائعة ، ولكن الى طرف من هذه وطرف من تلك ، عن مناخ العصر الثقافي وما يعيش في جوه من أفكار ومذاهب نلتمس من خلال الأدب ما يروق للنظر وتصطنع من أساليب تحديثه ما يطيب للسمع .

فهذا سارتر ، جين بول سارتر ، الفيلسوف الأديب ، وعلم الوجودية الأشهر في عصرنا ، يلتمس في القصة القصيرة طريقا الى عرض رأيه الوجودي ، فهو يرى أن الانسان لا بد أن يحظى بأكبر قدر ممكن من الحرية ، حتى يمكن له أن يتحمل أكبر قدر من المسئولية في عالم هو وحده الأول فيه والأخير ، نراه في محاولته منح الانسان هذه الحرية الكبيرة يحدد من جديد مفهوم التحليل النفسي ، فيرى أن الانسان بل وجوده انما يقوم على الحرية التي يكسبها عندما يختار أن يصنع من نفسه ماهو ، وعلى أساس من هذه النظرة ، نراه يرفض فكرة اللاشعور او العقل اللاواعي التي تجعل من الانسان مخلوقا سلبيا لا حول له ولا قوة ، اذ أنه يعتبر كل شيء يحدث له مما هو بديهي في عين عقله ، انما يشكل عنصرا من الذات الواعية ومن ثم فهو يخضع للسيطرة عليه ، بل ان رد فعل الانسان السلبي للظواهر الخارجية ، يكشف

عن حريته . فان القدره على قول لا . ان هى الا سلبيه مبدعة يعبر فيها الفرد عن فرديته .

وهى ثم فهى قصة (الغرفة ترى بيرليس مجرد رجل يقيده حبوبه الى غرفته ، ولكنه فرد يبكر فى حيويه ظاهرة ان ما من شىء فى الخارج له وجود ما ، فى اية صورة من الصور ، وهو فى فعل هذا انما يثير الشك فى سلامة عقل اولئك الذين يدعون انه مجنون فارقه عقله ، وهو يحمل منهم ما يحاولون ان يجعلوا منه . فاذا التفاش لا بد أن يدور حول ـ أى الطرفين يتمم تجربة أكثر ؟ ان المرء لا يزال يستطيع القول بوجوده عن طريق خلق جوهره ذاته .

وفى احلال الانسان محل الله ، يحرص سارتر على بيان أى ضعف من الانسان ضرورى لهذه الغاية ـ انه عند سارتر الانسان صاحب العقيدة الطيبة ، انسان يتأمل ويتدبر ، انسان واع يحس ذاته ويدرك شخصيته على حقيقتها هذا الانسان انما هو انسان حر ، فى حين أن الانسان ، ذا العقيدة الفاسدة يؤلف الضد التام ، فمراه لا يعى شيئا ، ثم هو رجل عش وخداع ، فهو يحقق فى تأمل دوره فى العالم الذى هو فيه . انه يعيش متراخيا فى أعماق خداع النفس الناعسة ، فهو قد يقبل مايتيح له أن نرفضه ، وهو قد يرفض ما يتيح له أن يقبله . وسارتر فى قصصه القصيرة خاصة يحاول دائما تعريف الانسان صاحب الطوية الخسيسة الطوية الفاسدة ، والكشف عن كيفيه سلوك هذا وذاك فى مواقف تتطلب استجابة صفاته الخاصة وحدها .

وفى ضوء هذا الكلام ، يمكننا قراءة قصة (الغرفة) باعتبارها سردا تاريخيا يروى حياة حالة من حالات خداع النفس ، أو عرض لحال صاحب الطوية الفاسدة ، ففى الواقع انما يبدو أن سارتر يعرق فى فكرة فساد الطوية هذه ، حتى ان أحد نقاده يرى فى عمله هذا مجهودا طويلا يهدف الى اكتشاف قباعات الطوية الخبيثة دون رغبة الاحجام عن ذكر مالا لزوم له . ففى هذه القصة زوجة تعيش مع زوجها المجنون فى الطابق السادس من بناء قديم ، ترفض المرأة وضعه فى مصحة عقلية ، ساعية عن طريق حبها ومشاطراتها أن تكون مثله فتذوق طعم الجنون الذى هو عليه ، وهنا نحصل على مثل واضح كل الوضوح من أمثلة خبث الطوية وفسادها . فاذا كانت لا بد تحقق جهودها ، اذا بها تكره على الوجود فى ظلال منطقة الوسط التى لا هى جنون ولا هى عقل سليم ، ويصور والدا الزوجة البرجوازيه شكلا آخر أكثر وضوحا من أشكال الطوية الخبيثة ، وكلا المثلين متطرف شديد التطرف ، أكثر جوهريا طرازى ، فكلاهما امتداد للحقيقة الطبيعية .

وقصة سارتر هذه الى قصة بروست « مشاعر بنوة قابل أبيه » وقصة بيراندللو الموسومة « شنشى » تتسم جميعها بأنها تكشف عن شئون النفس بما تخفى وراء مظهر سمته الوقار والاتزان . فالأدب الوجودى ، بحكم تعريفه ، يشتغل بهذا الجانب من الوجود الانسانى ، ولعله أكثر من غيره ، وخاصة فى قالب القصة القصيرة قد اكتشف هذه الأعماق غير المعروفة . وتطالعنا هنا حقيقة تدعو الى ذكرها ، تلك أن أهل التحليل من ارباب المذهب الوجودى قد خبروا أوجه النفس الانسانية طويلا قبل ان يقتنع فرويد أفكاره عن اللاشعور ، كما عاد من جاء بعده منهم فاصطنعوا طرائقه فى كشف ما خاص فى مستنقعات السلوك الانسانى ، ولعله الظلام يستره عن

الاثم . فقصة بروست التي ذكرنا ، تكشف عن العالم الذي في غير موضعه ، حيث كان يعيش فلاديمير قاتل الاب المذكور ؛ وتومئ الى أن كثيرا ما كان السعي من اجل الحقيقة في شأن شيء بعينه يفضي الى القتل والانتحار ، حتى ان المرء ليختلط عليه الأمر فلا يدري أين الحقيقة !

وبالمثل في قصة « شنشي » من تاليف بيراندللو ، نرى ان قتل الصبي المهاجر ليس أمرا شاذا . فهو يؤلف بعض كيان السام الذي عليه عالم شنشي . وهو يفجر على نحو ما لا بد أن تنفجر صورة من صور العنف حين يعلو بل يستحيل متنفس آخر عليها . فهو وقد ترك بمفرده مع أن العاهرة ، دون ارشاد ظاهر من اي نوع ، شاعرا بالملل المميت الذي يسم وجوده ، وبغير وعي ما لذاته او لعالمه الذي يعيش فيه ، يجد من الطبيعي أن يقتل ، حتى ولو كان القتل صدفة أو عرضا . وفي عالم كهذا ، يحتمل أن يحدث أي شيء . فبعد ارتكاب جريمة القتل ، يعود « شنشي » الى عالمه الكئيب وقد استحال الصبي لقتيل في الغاب ، ذكرى ، لا تلبث ان تغرب عن باله ، وتضيع في طي ما يجد مع صحبته التالية .

وفي ريب من هذا القصص ، قصة فيردي ليل آدم الموسومة « الرغبة في أن يكون رجلا » وفيها يسأل فيير فيما يلقى من اسئلة ، كيف يمكن لممثل ان يميز نفسه ذاته من ادواره الكثيرة التي يقوم بها أيها الممثل ، وايها الرجل الحقيقي ؟ اي شخصية يمكن للمرء أن يحققها ، حين يتعين عليه ان يبعد شخصيات عدده حتى يكون في قناع يحجب عنه الغير ؟ وفي السعي الى الشخصية الحقيقية ، كم يحتمل ان يطول سفره على الطريق حتى يصل الى أن يقرر فرديته ؟ ان هذه كلها اسئلة وجودية تقوم جميعا على اساس من تقرير شخصية الفرد الحقيقية ؛ فهذا شوفال واصلا ليبيتين ، ويعرف باسم موناتيبل ، فضلا عن عدد لا يحصى من الأسماء المسرحية التي حملها في حياته العملية الطويلة الناجحة .

ويرغب شودفال فجاة في أن يكون نفسه ؛ ان يشعر بالوان من العاطفة لاعلاقة لها بادواره التي يمثلها . فلان يكون انسانا ، لا بد أن يشعر بالندم . ولكنه حتى يشعر بالندم ذاك ، لا بد أن يرتكب جريمة مروعة ثم يلقى بعدها نفسه في عزلة عن الغير . وهكذا يدبر شودفال أمر حياته على نحو ما يفعل مخلوق انساني يحس ويشعر . فعن طريق المواءمة بين وجوده وخطته في الحياة ، يخلق هذا الانسان جوهره ولكن فراغ العالم من المعنى بلغ درجة ، حتى انه وقد نفذ خطته التي تبعث الرعب في النفوس بنجاح كبير ، وخلد الى منارة مهجورة ينتظر الندم ، اذا هو لا يقع على شيء . واذا به يواجه « لاشيئية » الوجود ، واذا بالقارىء آخر الأمر يقرأ : « لم يحس شيء ، باي شيء على الاطلاق ! » وتلك عبارة تسوق الى الوجود قولة موزيل ، قصاص الجنس الوجودي : « ان كل شيء من الناحية الوجودية لا يمكن قياسه ، ومن ناحية المعنى ، هو خلط واضطراب » .

ويقدم لنا دي ساديه في قصة « حوار بين قسيس ورجل يحتضر » صورة عكسية مباشرة لما نراه عند فيير وشودفال الذي يرغب في الندم ولا يجد شيئا . نرى مريض دي ساديه يبذل وهو على فراش الموت نصيحة مؤداها ان الندم العقيم يثير السخرية لا اكثر ، وان الجريمة في ذاتها يجب ان يجتنبها المرء ويتحاشاها ، لا عن طريق الخوف ، وانما عن طريق العقل والمنطق .

ويبقى صاحبنا فيقول ان الانسان يستطيع عن طريق العقل والطبيعة أن يرضع

قوى احساساته باللاشيء . وراءه . بدلا من أن يرهبه عالم لا وجود لله فيه . يحاول ما وسعه أن يدخل في روع القسيس فيؤمن بقوله . ان عالما هذا شانه . عالم بغير الله . يعلو على عالم يحكم فيه الله الانسان . ففي هذا العالم الأخير يحكم الانسان عن طريق الخوف . بينما في عالم لا وجود لله فيه . يعلو الانسان له الكلمة العليا. ان الانسان يستطيع أن يحقق شخصيته عن طريق اللذة . ويستطيع الى هذا ان يحكم نفسه بالعقل والمنطق لا بالخرافة والدجل والنفاق . وهو هنا يلتقي مع سارتر ثانية . حيث يقول هذا . « ان الانسان يصنع نفسه » . وقد يختلف الشكل ويتباين . ولكن الانسان حر باختيار جوهره بغير ما تدخل من احد . وبمضي دي سناديه في مذهبه القائم على امكان التغلب على النفور من المجتمع الذي نعيش فيه عن طريق الانغماس في اللذة الحسية . مما ترسم صورته شخصياته العديدة في قصصه الكثيرة .

وقريب من قريب . ينحو المذهب الوجودي عند صموئيل بيكيت وفرانز كافكا وسارتر باقيس اتجاها مغايرا . فالطراز الوجودي في قصص صموئيل بيكيت شخصية في خلاف وصراع مضطرب مع الأشياء من حولها . ذلك لأنها هي وحدها دون غيرها لها نصيب من الحقيقة . ويذهب بيكيت أبعد من هذا فيقول . ان حتى تلك الحقيقة موضع شك وريبة في آخر الأمر . ولا أدل على هذا من قصته « الطريد » . فهيا تتمثل السعي الذي لا أمل له من أجل أن يعرف صاحبها ألا سبيل الى ردها .

وفي قصة كافكا « راكب الحردل » . يبرز عنصر الوجودية فيما تقدمه من عالم أصابه الجمود . تلعب فيه الارادة الانسانية دورا صغيرا أو هي لا تكاد تلعب أي دور على الاطلاق . والانسان عند كافكا . وهذه ظاهرة واضحة لا يشوبها شك . في قصصه قصيرة وطويلة . هو دائما الضحية البريئة ليس هناك من يخفف غلواءها حياله . واذا كان هذا حاله الذي آل اليه . لا لشيء سوى أنه انسان . فانه لا يملك الا أن يسدد حسمه ويستجيب . فيراه يقول « أنا هنا . وأكثر من هذا لا علم لي به . وأبعد من هذا لا يمكنني الذهاب اليه » .

وفي قصة برخت « سقراط الجريح » ينتقل بنا المؤلف الى جانب آخر لنشاط الوجودية في ثوب القصة القصيرة .. ذلك جانب التعليق السياسي الذي في السحب في دنياه هو القاعده . والنظام هو الاستثناء والشذوذ . ويرمز برخت الى جور البطولة من المنفى في معركة تقرر قوى أخرى بجانب الأبطال الفردية نتيجتها . ولعله هنا يومىء الى بلده المانيا وما كان من أمرها في الحرب العالمية الأخيرة . ونقطة أخرى تبرز في هذا المجال . الا أنها أقل حظا من الوضوح . ان الارادة الفرديه لا قائمه فيها اساسا في عصالم لا يستجيب للعمل البطولي . وصفوة القول هنا أن الفرد يضرب بفعل غيره عن رعايته كلية تقريبا . وسقراط الجبان . هو سقراط البطل الى حين . ثم لا يلبث أن يسقط بفعل شوكة آلمته في قدمه . الا أنها أثارت السخرية من جانب غيره . وعلى طول القصة . لا يترع سقراط مرة فيخدع نفسه لأن مناط الفضيلة عنده أن ان شئت عند برخت وأعني الفضيلة الوجودية العظمى حقيقة الذات فلأن شخصا حقيقيا معناه ان تكون شخصا يواجه الحال الانساني . يتقبل في تصميم واصرار حقيقة محدوديته وموته . ويستجيب للحياة استجابة ابداعية . ويتحمل في رحولة مسئولية قراراته كلها . وهذا فيما يضمن برخت حديثه . سر عظمة سقراط

والحديث يطول . وحسبنا هذا القدر الذي يفي بالغاية فيما نقدر . فانما نسعى الى عرض نماذج وجودية من القصة الوجودية التي تلعب دورتها في ايامنا هذه .